رحلة المصطلح بين القديم والحديث في اللسانيات العربية

أ.د. عبد العزيز احميد [1]

حينما نتحدث عن رحلة المصطلح بين القديم والحديث فإن هذا العنوان مقصود لذاته، ذلك أن الرحلة قد تكون من القديم نحو الحديث، وهو الفهم الذي يقفز الى الذهن بادي النظر، باعتبار الزمن خطا ممتدا من الماضي نحو الحاضر، وهو الذائع عادة، لكن الواقع يكشف لنا أن الرحلة يمكن أن تكون من الحاضر نحو الماضي، وهو ما يعتبر خلفا للصورة الأولى. فإذا كان بعض اللسانيين المعاصرين المشتغلين بالنظريات والمناهج الحديثة قد ألفوا العودة إلى المعجم الفني التراثي مستفيدين منه ومستثمرين لإمكاناته الاصطلاحية، فإن هناك فريقا من الدارسين المعاصرين ظلوا مرتبطين بالتقليد اللغوي العربي التراثي كل بحسب هدفه، لكن الجامع بينهم هو اشتغالهم بالمصطلح اللساني الحديث في سياق دراسة التراث اللغوي، إما بهدف إعادة قراءته (تمام حسان، كمال بشر عبده الراجحي، جعفر دك الباب...) أو بهدف ما يصطلح عليه بالتيسير وإعادة تقديمه للمتعلمين بصورة أكثر تنظيما، وأبعد ما يكون عن الجدل المنطقي والتعقيد الفلسفي اللذين كثيرا ما خالطا العبارة العلمية اللغوية التراثية. وكان استثمار المصطلحات اللسانية المعاصرة أهم وسيلة في تحقيق هذا المبتغى(إبراهيم السامرائي، عبد الصبور شاهين، عبده الراجحي، تمام حسان، محمود السعران..) ومن هذا الباب دخلت مصطلحات كلية، كالتركيب والدلالة والمحور المركبي والمحور الاستبدالي...الخ، ومصطلحات فرعية، كالفونيم والمورفيم والمونيم والوحدة الدالة والسمة التمييزية...الخ.

وما تقدم يمثل الرحلة المصطلحية في بعدها العمودي جيئة وذهابا، لكنها يمكن أن تتحقق أفقيا، وذلك بإعارة بعض العلوم للبعض الآخر نماذج من المصطلحات التي تعكس وجوه التأثير والتأثر بينها، والتوجيه النظري والمنهجي الذي يخضع له بعضها بسبب من البعض الآخر ضمن دائرة تداخل العلوم وتكاملها. وكل نوع من هذه الصور الرحلية يقتضي تحليلا خاصا ونظرا معينا تبعا لخصوصية المنطلقات والأهداف والمقتضيات.

إن مفهوم المصطلح التراثي اللغوي العربي يتراوح بين الضيق والاتساع من حيث المجال الذي ينتمي اليه، وحسب الزاوية التي ينطلق منها الباحث، فإن كان في مجال التركيب فإن المصادر النحوية بمعناها الخاص يمكن أن تلبي ضالته وتحقق تطلعه، لكن إن كان في مجال الدلالة فإن هذه المصادر هي آخر ما تقع في طلبه، وتكون مرجعيات علمية أخرى في الصدارة لديه، كالبلاغة والمعجم والمنطق والأصول والكلام ..الخ. وإن

[1] - أستاذ اللسانيات والمصطلحية بشعبةاللغة العربية وآدابها، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس، المغرب.

كانت الزاوية البحثية التي ينطلق منها هي الصواتة، فهو مطالب بالتعامل مع مرجعيات علمية أخرى كالقراءات والتجويد والصرف والأصوات والعروض والقافية وفقه اللغة وحتى بعض مباحث النقد الأدبي.

ونظرا لما تقدم فإننا سنعول على نموذج واحد في تناولنا للموضوع هو المصطلح النحوي بمعناه الخاص في مسار رحلته نحو السياق اللساني المعاصر، وهذا يقتضي منا تعريف المصطلحين معا. فما هو المصطلح النحوي، وما هو المصطلح اللساني؟؟

- بين المصطلح النحوي والمصطلح اللساني:

تأتي ضرورة الحديث عن المصطلحين وطبيعة كل منهما من نوعية العلاقة التي صارت حاصلة بينهما بفعل وحدة الموضوع (=اللغة)، ومن مقتضيات أخرى سيأتي الحديث عنها لاحقا، وقد وقع التداخل بينهما في العصر الحديث خاصة على إثر ظهور المناهج اللسانية الحديثة في دراسة اللغة، حيث وقع التنازع بين النحو واللسانيات في أحقية كل منهما بصفة العلمية، أما قبل هذا فلم يكن للتداخل وتنازع الأدوار من مجال، فكان المصطلح النحوي هو كل وحدة تتكون من لفظ موضوع بإزاء مفهوم إجرائي في نسق المنظومة النحوية. والنحو تقليد علمي لغوي قديم ومعروف في الحضارات الكبرى منذ قرون. أما المصطلح اللساني فهو الوحدة اللغوية الإجرائية التي تحظى بقيمة مفهومية في النسق العلمي اللساني، ومعلوم أن اللسانيات خطاب علمي من نتاج التفكير العلمي في اللغة ابتداء من مطالع القرن العشرين في الغالب.

يتحدد الفرق إذن بين المصطلحين بناء على الفرق الموجود بين تقليدين علميين يختلفان من حيث الطبيعة العلمية والانتماء الزماني والخصوصية المنهجية، وإن التقيا في الموضوع الذي هو اللغة مع تباين في تصوره. ولهذا "درج مصنفو التيارات والمدارس اللسانية على التمييز بين فكر لساني قديم (أو تقليدي) وفكر لساني حديث. وينزع أغلب هؤلاء المصنفين إلى إقصاء النتاج اللغوي التقليدي من مجال التفكير اللساني على اعتبار أن تاريخ اللسانيات الحق يبتدئ مع القرن التاسع عشر بما اصطلح على تسميته باللسانيات التاريخية أو اللسانيات المقارنة، بل إن منهم من يذهب إلى أن التفكير في خصائص اللغات الطبيعية لم يأخذ الطابع العلمي إلا في بداية القرن العشرين مع رواد كسوسور وبلومفيلد وغيرهما" [1].

وهناك من يعد الإنتاجات اللغوية المختلفة بالنظر إلى الزمان والمكان "إنجازات" لـ"قدرة" علمية واحدة، وإن كان هذا لا يعني أنه ليس للسانيات المعاصرة خصائص تميزها عن الفكر اللغوي المنعوت بـ"التقليدي" [2].

---

[1]- اللسانيات الوظيفية - مدخل نظري: الدكتور أحمد المتوكل. ص10، وينظر
Nouvelles tendances de la linguistique, Malmberg : p 16

2- نفسه: 10.

ويمثل المصطلح النحوي (Terminologie grammaticale) نموذجا للمصطلح الملتبس بسبب تعدد الدلالات الطارئة عليه وذلك على إثر التطور الذي حصل في الدراسة اللغوية في الدراسات الغربية بصفة عامة وفي الفرنسية بصفة أخص، وهذه أهم التعاريف التي عرفها هذا المصطلح:

1- مجموع الألفاظ ذات القيمة النظرية والتقنية التي تعكس نسقا مبنيناً.

2-الوصف النسقي لهذا المجموع المنتظم بقوة سواء في علاقاته التركيبية (Syntagmatiques) أو في علاقاته التراكبية (Paradigmatiques).

3-التنظير الخاص بهذا المجموع، والذي يقترح "آلان راي" (Alain Rey) ، مصطلح: "Métaterminologie"، عنوانا لهذه المهمة [1].

يحيل مصطلح النحو في الغالب، على مصطلح النحو التقليدي والمعياري ويقع في تقابل مع المصطلح اللساني الذي يحيل بدوره على مفهوم الدراسة الوصفية العلمية غير المعيارية. ولكن هذين المفهومين يتداخلان في أحيان كثيرة، وكل منهما يمكن أن يحتوي الآخر حسب المدارس اللسانية، وهنا مناسبة للتردد في تحديد هوية المصطلح، حيث يصعب في بعض الدراسات التفريق بين ما يرتد للسانيات وما يرتد للنحو.

وتبعا للتمييز السابق فقد دأبت المعاجم اللسانية في مقدماتها على الإشارة إلى ما بينهما من تمايز، مع تأكيد خصوصية الاتساع التي يمتاز بها المصطلح اللساني.

ومن خصائص المصطلح النحوي أنه مرتبط بلغة بعينها، بخلاف المصطلح اللساني، ولهذا فإن المصطلحات الخاصة بالتصنيف في النحو التقليدي يستحيل عليها أن تقدم مفاهيم عامة تصلح في وصف كل اللغات وتحليلها، حسب الفهم الجاري الخاص بها [2].

ويبدو أن هناك صعوبة بالغة في التمييز بين المصطلحات التي تنتمي لكلتا الممارستين العلميتين نظرا للتداخل المصطلحي الذي حصل بينهما بحكم وحدة الموضوع، خاصة أن اللسانيات احتضنت كثيرا من المفاهيم والمصطلحات القديمة على المستوى المنهجي الإجرائي رغم اختلاف الفرضيات النظرية والتوجهات المقصدية[3]، مع أن الموقف في هذه المسألة يشكل محل خلاف بين المدارس اللسانية، فقد وقفت بعض المدارس وخاصة البنيوية، من هذه المصطلحات موقفا صارما،[4] لأنها كانت تهدف الى ترسيخ وجودها وإضفاء طابع الشرعية على هذا الوجود أمام تقليد علمي عميق الجذور

-1de la terminologie grammaticale: p 7

2- ينظر: Prolégomènes à une théorìe de language:p 20-22

3- وهذا موضوع يحتاج لبحث.

4- أكبر مثال لهذا الموقف فردناند دوسوسور نفسه الذي كان يهدف إلى إضفاء الشرعية على أفكاره الجديدة أمام هذه المصطلحات التي ترسخت في الأذهان طوال قرون، وأيضا المدرسة الكلوسيماتية بريادة يلمسليف. ينظر: prolégomènes ولكن الذي أغرى هاتين المدرستين وأمثالهما بهذا الموقف، هو أنهما وقفتا عند حدود التنظير ووضع الفرضيات العامة، ولم تصلا إلى مستوى التطبيق الإجرائي في وصف الأنساق وتفسيرها، وإلا فقد وقع بعدهما غير ذلك.

في دراسة اللغة وقضاياها، وامتزج مع مختلف المجالات العلمية أداة منهجية تحليلية حتى صار جزءا لا يتجزأ منها.

لقد كان من وراء التوظيف اللساني للمصطلحات النحوية اعتبارات تعليمية (بيداغوجية) بالدرجة الأولى [1]، حيث استعصى على المتلقي استيعاب المفاهيم التي صيغت في سياق الأطر النظرية الجديدة فاضطر اللسانيون للاتكاء على المصطلحات التقنية النحوية وسيطا من أجل تبليغ هذه المفاهيم، وذلك بركوب المصطلحات القديمة التي تحكمت في الأذهان والعقول وصار من الصعب تجاوزها. وقد حدث هذا الاستثمار رغم أن هدف المفاهيم اللسانية تشكيل نظرية عامة في وصف اللغات، يقول أحد الباحثين: إن "ما يطلبه القراء هو نوع من التأويل للمصطلحات التي يجهلونها بواسطة الألفاظ والمفاهيم الأكثر انتشاراً في نطاق النحو التعليمي (...) إن تعريف المصطلح الذي نجهله يجب أن يوظف ألفاظا معروفة لدى القارئ" [2].

لقد سهُل على كثير من الدارسين العرب المحدثين في مجال اللسانيات أن يحضروا صدى المساجلات المتصلة بطبيعة العلاقة بين النحو واللسانيات كما سادت في الثقافة الغربية، إلى ساحة الدراسة اللغوية العربية دون أدنى توقف عند مظاهر الاختلاف بين الصورتين التي طبعت مسار العلمين تاريخيا وحاضراً، وكأنما كان في لا وعيهم وهم يفعلون، المقولة الاستشراقية أن النحو العربي ظل للنحو الغربي! [3].

إنه لا يمكن التسليم بهذه الطريقة في التفكير التي تركب منحى توازي الصور، مع إسقاط مجحف للأسباب واختلاف الرؤى والخلفيات والتداخلات المعرفية والشروط التاريخية والحضارية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن "النحو التقليدي نحو غربي، وأن النحو الوصفي بحدوده العلمية الحديثة نحو غربي أيضا، كلاهما نشأ وتطور في اللغات الأوربية". [4] لهذا لا يجوز سحب هذه السجالات إلى مجال النحو العربي في علاقته باللسانيات نظرا لخصوصية هذا النحو النظرية والمنهجية، وبحكم امتداداته في علوم لها صلة بتحليل الظاهرة اللغوية وخاصة ما يتصل منها بقضايا تحليل الخطاب وموضوعاته، كالبلاغة والأصول والتفسير والكلام، وهو ما أضفى عليه خصبا وثراء وعمقا لا نلمسه في النحو الغربي الموصوف بالتقليدي، ولاشك أن هذه الاعتبارات قد انعكست آثارها على المصطلح مما أكسبه خصوصية متميزة وخاصة مع المصطلح المنحدر من الكتب النحوية الأصول دون الكتب التعليمية المتأخرة.

1- ينظر: Nouvelle grammaire du français: 2

2-de la terminologie grammaticale: 13

3- ينظر: المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة للدكتور عز الدين مجدوب، فقد تولت هذه الدراسة معالجة هذه الإشكالية، وتفسير أسبابها.

4 - النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، الدكتور عبده الراجحي، ص: 45، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1979

وبحكم التطبيقات المنهجية اللسانية على ظواهر اللغة العربية فقد استثمرت المصطلحات النحوية العربية فأضحت قائمة على مفاهيم تقترب أو تبتعد من مفاهيمها الأصلية، وإن كان موقف الدارسين من تقدير ظاهرة الاستثمار هاته مختلفا [1].

- موقف الباحثين من قضية استثمار المصطلح التراثي:

تباينت مواقف الدارسين اللسانيين المعاصرين من قضية استثمار المصطلح التراثي اللغوي في سياق الكتابة اللسانية المعاصرة لدرجة قد تكون امتدادا لموقف بعضهم من التراث نفسه، وقد تقتصر لدى البعض على المسار العلمي الصرف الذي يشكل قناة لرحلة المصطلح من مجال علمي لآخر لكل منهما سياقه التاريخي وشروط انجازه المعرفية الخاصة. وفيما يلي إجمال لهذه المواقف التي يمكن حصرها في ثلاثة:

1- موقف الراعين لإعمال المصطلح التراثي:

ينطلق اصحاب هذا الرأي من نظرة شاملة لطبيعة العلاقة بين الماضي العلمي والحاضر منه وضرورة وصل العلوم الجديدة بالقديمة، ويترتب عن هذا بالضرورة إعادة استخدام المصطلحات القديمة في سياق التعبير عن مفاهيم علمية جديدة،"إن أولوية التراث بوصفه وسيلة لتوليد المصطلحات الجديدة، بتحري لفظ منه يؤدي معنى اللفظ الأجنبي أو يقاربه، أمر منطقي وبدهي، خاصة في لغة كاللغة العربية، غنية بتراثها الفكري والعلمي وبتجاربها الحضارية، مما أتاح لها تراثا وحصيلة لغوية قلما تأتت لغيرها من اللغات".[2] وبهذا يشكل الاستعمال الجديد محطة من محطات تطورها المفهومي وتعميقا لذاكرتها التاريخية مع ضرورة تأكيد مراعاة ما بين المفهومين من السمات الفارقة والخصائص المباينة، يقول أحد هؤلاء الباحثين: " ولقد حرصنا في هذا العمل على ربط الصلة بين الماضي والحاضر، والقديم والحديث إيمانا منا بأن لا حديث بلا قديم، ولا فضل لقديم يقنع بنفسه ولا يتطور أو يتجدد مع الزمن، فانطلقنا من المفاهيم القديمة والمصطلحات القديمة، ولم نغير منها إلا ما يوقع في الغموض والالتباس، أو ما بان خطؤه وعدم صلاحه اليوم..وحاولنا إنارة المفاهيم القديمة بالمفاهيم الحديثة بغاية التبسيط الممكن حتى يشعر القارئ بمواطن الالتقاء ومواطن الافتراق بينها، وحتى لا يشعر

1- ينظر على سبيل المثال أعمال ندوة المصطلح التراثي بين الإعمال والإهمال، التي تولت مجلة المناظرة نشرها في عدد خاص رقم: 6، دجنبر 1993. ولكن السؤال الذي غاب عن هذه الأعمال وكان يجب رفعه قبل كل شيء هو: ما هي الشروط العلمية لاستثمار المصطلح التراثي؟.

2 - المصطلح العلمي في اللغة العربية عمقه التراثي وبعده المعاصر ص 249. د. رجاء وحيد دويدري. الطبعة الأولى. 2010. دار الفكر دمشق

بالقطيعة بين فقه اللغة القديم وعلم اللغة الحديث، فلا يختنق في الحدود القديمة الضيقة، ولا يتيه في مجال النظريات الحديثة المتشعبة ومصطلحاتها العديدة المتجددة".[1]

ورغم ما نص عليه أنصار هذا الاتجاه من ضرورة استحضار الفروق المفهومية بين المصطلحات القديمة والجديدة فقد ترتب عن هذا الاستثمار مشكلات متباينة مَثُلت في عدم التدقيق في الفروق الحاصلة والسمات الفاصلة، وكان لها أثرها المباشر على أداء هذه المصطلحات في ما وضعت له في الأصل والمقصد الأول، ومثال ذلك مصطلح "فقه اللغة" الذي هو "مصطلح عربي خالص، لا يعرفه الغربيون في لغاتهم"[2] لكن بعض الباحثين وضعه مرادفا لمصطلح فيلولوجيا الذي يعتبر مصطلحا غربيا صرفا في المقابل، وكان عنوانا للدراسات المرتبطة باللغات والدراسات القديمة ويحظى بمعان تفصيلية داخل هذه الدائرة الأعم[3]، يقول الدكتور محمد أحمد قدور:" فالمصطلح الذي استعمل قديما في دراساتنا اللغوية، ثم استخدم في الدرس الحديث مشربا دلالة جديدة، يثير في بعض الأحيان مشكلة ليس من اليسير حلها. وأوضح مثال على ذلك ما اطرد لدى بعض الباحثين عندنا من ترجمة مصطلح (philologie) ب(فقه اللغة) استنادا الى معنى المصطلح الأجنبي حرفيا، ودون الانتباه إلى أن (فقه اللغة) مصطلح مستعمل عندنا منذ القرن الرابع الهجري، وله مواضعاته المعروفة، ولذلك حدث خلط بين دلالة الفيلولوجيا وفقه اللغة حتى احتاج معظم الباحثين إلى مناقشة الفروق بين المصطلحين وتحديد الوجهة التي يريدونها حين استعمال مصطلح (فقه اللغة)".[4]

إن استثمار المصطلح التراثي تحت ضغط الحاجة ودون تأنّ في الاستيعاب قد يُوقع في منزلقات علمية تعود على المتلقي بالتيه في الفهم، ذلك أن المصطلح التراثي "المشدود إلى مرجعية خاصة تختلف تماما عن مرجعية المعطيات الحضارية الحديثة، قد يفقد هذه المعطيات حداثتها ويفرغها من مضامينها الجديدة ليشدّها إلى مضامين مغايرة تماما"[5]، يُوقع المتلقي في الاضطراب ويعطل سرعته في الاستيعاب، وهذا أهم مبرر يأخذ به دعاة الفصل والقطيعة مع التراث وهو ما نقف عليه مع عرض رأي أصحاب الموقف الثاني.

2- موقف الداعين للفصل مع المصطلح التراثي:

كما رأينا مع أصحاب الموقف السابق، فإن أصحاب هذا الموقف أيضا يمكن أن تكون دعوتهم للفصل مع المصلح التراثي امتدادا لاعتقادهم بضرورة القطيعة مع التراث

---

1 - التصريف العربي د. الطيب البكوش، ص. 22، نقلا عن " من قضايا المصطلح اللغوي العربي" لمصطفى طاهر الحيادرة، ج 1. ص 123

2 - الأصول دراسة ابيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي. ص 258. تمام حسان.دار الثقافة، الدار البيضاء. الطبعة الأولى 1981.

3 - نفسه ص:253

4 - اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي العربي، د. أحمد قدور

5 - حفريات في المصطلح، مقاربات أولية. محمد عابد الجابري، مجلة المناظرة. العدد 6،ص 22

جملة أو لدى بعضهم على الأقل، أو أنها تنحصر في قضية إعادة إعمال المصطلح التراثي فقط في السياق الحديث المغاير في كل أوضاعه، للمبررات التي يقدمون.

تنطلق هذه الطائفة من الباحثين من الدعوة لتلافي استعمال المصطلحات التراثية في سياقات علمية جديدة مغايرة في الطبيعة والمحتوى، وإلى ضرورة ابتداع ألفاظ جديدة لكل المفاهيم الجديدة المكتشفة أو الوافدة على اللغة العربية، بل إن المبالغة قد تصل ببعضهم إلى اعتبار الألفاظ القديمة قيودا، "وقد آن الأوان أن تتخلص أقلامنا من قيود الجاهلية، ونخرجها من سجن البداوة.. وإلا فلا نستطيع البقاء في هذا الوسط الجديد. فلا ينبغي لنا احتقار كل لفظ لم ينطق به أهل البادية منذ بضعة عشر قرنا، لأن لغة البراري والخيام لا تصلح للمدن والقصور إلا إذا ألبسناها لباس المدر".[1]

ويذهب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري إلى نزع الكفاية التعبيرية عن المصطلح التراثي تجاه المفاهيم اللسانية الحديثة، ويعلل ذلك من وجهة نظره بأن "الثروة المفرداتية الداخلية مصدرها المصطلحات النحوية واللغوية والبلاغية والعروضية القديمة أساسا، وهي مجسدة لمقولات فكرية معينة في زمن معرفي معين، لذا لا نكاد نجد من يدعو الى الاكتفاء بها والوقوف عند حمولتها الفكرية دون تجاوزها إلا الثلة القليلة المغرقة في أسلفة مظلمة."[2] والحل في نظره لما كانت "جل مفاهيم اللسانيات الحديثة جديدة...ولا بد من اقتراح مقابلات لها تخرج في أغلبها عن المعجم المتوفر. ومن هنا ضرورة اللجوء الى التوليد".[3] فاختلاف المرجعية عامل حاسم في نظر الفاسي للاعتقاد بضرورة الفصل بين المصطلحين، لأن عدم ذلك يوقع في منزلقات علمية جمة، ذلك "أن المترجم غالبا ما يعتقد أن المقابل العربي الوارد في التراث يصدق على ما يصدق عليه المصطلح الغربي، لأن قراءته للتراث النحوي واللغوي والبلاغي غالبا ما تتكيف حسب الثقافة اللسانية السائدة، فيقوم بإسقاطات ظرفية وذاتية، وينتهي إلى مناسبات غير قائمة، من هذه المناسبات الزائفة: نظم: syntax، إنشائي: performation، مبتدأ: topic، خبر: concurent، ملكة: competence ...الخ".[4]

واقتناعا منه بمبدإ "الاستقلالية المرجعية للمعجم المنقول" فقد لجأ لتوظيف وسائل التوليد بدل اللجوء للمصطلح التراثي بهدف "عدم الخلط بين مفاهيم اللغة المصدر وما لدينا من مفاهيم في اللغة العربية (هذا كلامه في التقديم الذي أدلى به ضمن اشغال الورشة الترصيدية حول المصطلح اللساني إلى أين؟" يوم 4 فبراير 2010، الرباط، جمعية اللسانيات بالمغرب). يقول في هذا الشأن: "وقد حاولنا ما استطعنا الابتعاد عن استعمال المصطلح المتوفر القديم في مقابل المصطلح الداخل، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة من شأنه أن يفسد علينا تمثل المفاهيم الواردة والمفاهيم المحلية

---

1 - اللغة العربية كائن حي لجورجي زيدان، ص 139

2 - اللسانيات واللغة العربية للفاسي الفهري، ص 225

3 - نفسه: 236 - 237

4 - نفسه، ص 236

على السواء، ولا يمكن تعريف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا"1. وضرب لذلك مثلا بمصطلح "مبتدأ"، فهو مستعمل في النحو بمدلول عاملي محدد، وهو مفهوم صوري، ولا يمكن أن نُعيد استعماله مقابلا ل "topic" وهو بمفهوم وظيفي، لأن ذلك سيؤدي إلى اشتراك لفظي غير مرغوب فيه في مجال لغة العلم.

ومع ذلك فإن معجم الدكتور الفاسي في المصطلحات اللسانية جاء حافلا بالمصطلحات التراثية بنسبة مائوية غالبة ك: "الابتداء" و "اسم الفاعل" و "اسم المصدر" و "الموصول" و "حرف الجر" و "ماض" و "نكرة" و "أداة تعريف" و"ترخيم" و "جناس" و "استعارة" ...الخ

فهل مرد ذلك إلى إكراهات التطبيق؟ أم إلى العجز عن توظيف آليات التوليد بما تتطلبه من المهارة والحذق اللغوي؟ بل السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه هو: إلى أي حد استطاع الدكتور عبد القادر الفاسي النجاح في تطبيق مبدإ التوليد واختراع مصطلحات تتوفر فيها شروط الاستعمال التي تكفل لها الكفاية في الأداء والقبول في التلقي؟

3- موقف الدراعين للتعامل النفعي مع المصطلح التراثي:

يكتسي الطابع النفعي لدى أصحاب هذا الموقف تارجحا بين المرحلية والمبدئية، فقد يستثمر المصطلح التراثي مرحليا للتبليغ والتوصيل ثم يتجاوز بعد ذلك، وقد يستثمر وفق قرار نهائي للتعبير عن مفهوم جديد محدد.

ويعتبر الدكتور أحمد المتوكل نموذجا حيا وواضحا لهذا الموقف، فقد اعترف بأن المصطلح التراثي وخاصة البلاغي منه، قد رفده بمصطلحات جاهزة وظفها في بناء خطاب علمي جديد أسَّسه على الجهود الدلالية في التراث، لكن ليجاوزه بعد ذلك، وقد صرح بهذا قائلا:"فقد مددت بين الفكر اللغوي العربي القديم وأحد النماذج اللغوية الوظيفية الحديثة، نموذج "النحو الوظيفي" جسرا مكنني، وأنا بصدد معالجة قضايا تداولية في اللغة العربية، أن أستعير من مؤلفات اللغويين القدماء ما مسَّت اليه الحاجة، وما رأيته واردا مناسبا".[2]

وقد مرت علاقة الدكتور المتوكل مع التراث بمرحلتين: مرحلة عرض التراث وتقديمه والعمل على اكتشاف النظرية الكامنة خلفه، وفي هذه المرحلة عمد الى استعمال المصطلحات الخاصة بهذا التراث نفسه، لأن "الوصف الموضوعي لأية نظرية يقتضي ألا يخرج الواصف عما وضعه لها أصحابها من ألفاظ ورموز." [3] ثم مرحلة إعمال التراث واستثماره، وفي هذه المرحلة كان مُخيَّرا بين الإبقاء على المصطلح التراثي للدلالة على المفهوم المجتلب، وبين أن يستبدل به لفظا جديدا مخترعا، يقول في هذا الشأن:" وقد

---

1 - اللسانيات واللغة العربية. ص 238

2 - استثمار المصطلح التراثي في اللسانيات الحديثة: اللسانيات الوظيفية نموذجا،د. أحمد المتوكل، مجلة المناظرة، عدد 6، ص 49-50

3 - نفسه. ص 50

لجأت إلى الاختيار الأول في حالات كان فيها المصطلح القديم في المستوى المطلوب من الدقة والتحديد كما هو شأن مصطلحات "الحصر" و "القلب" و "التعيين" و"التقوية" و "التخصيص" المستقاة بما تدل عليه من مفاهيم من مؤلفات علم البلاغة. واستخدمت في غير هذه الحالات مصطلحات حديثة للدلالة على المفاهيم القديمة المقترضة خاصة حين بدا لي أن المصطلح القديم لا يرقى إلى ما يتطلبه الضبط المصطلحي من دقة. مثال ذلك ما ارتأيت فعله حين استعرت مصطلح "محور" (topic) للدلالة على الوظيفة التداولية التي يأخذها المكون المتوسط بين الفعل والفاعل...مستبدلا إياه بعبارة "العناية والاهتمام" الواردة في تحليل الجرجاني لهذا الضرب من التراكيب، والتي بدت لي من العموم ما يجعلها غير كفيلة بتأدية المصطلح الحديث".[1]

نستنتج من كلام الباحث إذن أن إعمال المصطلح التراثي على نوعين: إعمال واجب يتحتم معه استعمال المصطلحات التراثية، وذلك حينما نكون بصدد عرض أفكار التراث حتى نحقق الموضوعية، فلا يسوغ في هذه المناسبة خلطه بمصطلحات ليست منه.. وإعمال جائز إذ يجوز في المفهوم المجلوب من التراث أن يظل مدلولا عليه بلفظه، ويجوز أن يستبدل به لفظ حديث إذا لم يكن اللفظ القديم حائزا شروط الضبط والدقة، أو إذا روعي التناسب بين المصطلحات، كما يجوز أن يعرب المصطلح الحديث بواسطة مصطلح تراثي إذا تحققت مجموعة من الشروط، فإن تعسَّرت الشروط كلها أو بعضها، فالأولى اللجوء إلى اختراع المقابل اللفظي الأنسب، وأهم هذه الشروط نجاح عملية النقل المفهومي وتتم عبر مرحلتين أساسيتين هما: إفراغ المصطلح القديم من مفهومه الأصلي ثم شحنه بالمفهوم الذي يدل عليه المصطلح الحديث.

وبعد استعراضنا ما تقدم من المواقف يجدر بنا طرح السؤال: هل مبررات الاختيارات السابقة لدى كل الفرق طابعها التضارب؟ وما حدوده إن كان كذلك؟

إن النظر المدقق في المبررات المقدمة لدى كل فريق يوصل الى أن الفجوة بينهم ليست متسعة، وإلى أن الجمع بين مختلف الآراء يمكن أن يفضي إلى درك تكامل بينها في العمق، فدرء التشويش المفضي إلى التباس المفاهيم الجديدة أمر ملح من الناحية العلمية، وهو لا يتنافى مع إعمال المصطلحات التراثية إذا انتفت الدواعي المسقطة في التشويش. والنفعية أيضا منهج في تدبير الممكن والاستغناء عن الجهود التي لا يحتمها داع معين، وفي ذلك تحقيق لمطلب الاقتصاد اللغوي.

وهذه النقطة تسلمنا للحديث عن دواعي استعمال المصطلح التراثي.

- دواعي استعمال المصطلح التراثي:

يصعب الفصل بين دواعي استعمال المصطلح التراثي في السياق العلمي الجديد وقضية الثنائية الفكرية التي طرحت على طاولة المشتغلين بقضايا الفكر العربي الحديث والمعاصر بصفة عامة، ألا وهي ثنائية الأصالة والمعاصرة، لكننا نفضل الابتعاد عن

1 - نفسه. ص 51

تفاصيل ذلكم الجدل المثار في هذا المجال، وننأى ما أمكن عن الاعتبارات الفكرانية (الإديولوجية)، ونبقي القضية المصطلحية مطروحة في سياق علمي محدد ماثل في اجتهادات تطبيقية في الواقع، وهكذا يجدر بنا أن نرسم أهم الأسباب الكامنة خلف القضية التي نحن بصددها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أ- لقد كان الدافع لدى البعض في تعامله مع المصطلح التراثي الوصل مع الماضي العلمي للأمة وتجنب القطيعة التي لا تخفي آثارها النفسية ونتائجها العقلية، ذلك أنّ التفاعل مع التراث يكسب الرغبة في الاستزادة في التحصيل بما يملكه من ثراء مفهومي ومعجمي من شأنه أن يحقق الثقة في النفس ويعمق الانتماء الحضاري، ويوقف الإنسان المعاصر على القدح الفكري والعقلي الذي بلاه المتقدمون في مجال الفكر اللغوي، وهو ثروة يصعب التفريط فيها والبدء من الصفر، وكأننا بدأنا نفكر اليوم وليس من الأمس.

ب- التحدي الذي جوبه به المتعاملون مع المفاهيم الحديثة المتكاثرة والمسترسلة بلا انقطاع، فكان توجههم الى التراث لعله يلبي حاجة في نفوسهم ويُسهم في تغطية السيل المتدفق من المفاهيم الجديدة وترسيخها في بيئة اللغة العربية، رغم أنهم لم يفرطوا في الوسائل الإجرائية المولدة لمصطلحات جديدة، فليس كل جديد له مقابله في التراث بالضرورة.

ت- أن إعمال المصطلح التراثي يعد مرحلة جديدة في التطور المفهومي لهذا المصطلح، لكن باعتبارات مختلفة، وفي سياقات علمية وحضارية جديدة مباينة للسابقة، ذلك أن المصطلحات التراثية خضعت للتطور والتعدد المفهومي تبعا للاعتبارات المختلفة حتى في الزمن الواحد، كاختلاف المدارس والنظريات، أو الخلفيات المعرفية والمرجعيات العلمية الخاصة بواضع المصطلحات، أو الهدف من المصطلحات بأصل الوضع هل الغاية علمية أو تعليمية، وشتان بين الهدفين، أو ارتباطا بسياق الاستعمال، فما أكثر ما يختلف مفهوم المصطلح من سياق استعمالي لآخر حيث يلتقط سمات مفهومية متغايرة بحكم المجاورة. وكل ما تقدم من الاعتبارات عرض للمصطلح اللساني الحديث والمعاصر، أسبابا ومظاهر.

ث- أن من فوائد إعمال المصطلح التراثي تحقيق الاقتصاد في اللغة العلمية الخاصة بالكتابة اللسانية حتى لا تتكاثر على المتلقي أعداد الألفاظ الاصطلاحية، فيرهق ذهنه، وتشل طاقته وتصيبه السآمة من الاستزادة في طلب هذا التخصص.

ج- أن الألفاظ التراثية ثبتت نجاعتها الاستعمالية، وذلك بتحققها بخصائص التأثيل اللازمة بنيويا ودلاليا، وذلك أن الواضعين الأول كانوا أكثر ارتباطا باللغة العربية، وتوفية بدقائقها الاستعمالية، وهذا مطلب ضعف وجوده في الكثير من المواقف، مما نتج عنه قدر غير قليل من الاضطراب والقلق في المصطلحات المعاصرة، ومما يقوي هذا الزعم أن المصطلحات التراثية اللغوية امتدت تطبيقاتها في مجالات علمية مختلفة يجمعها هاجس اللغة في بعدها الخطابي ووقع عليها الإجماع وثبتت مردوديتها في الإنتاج.

ح- أن المصطلحين التراثي والحديث يشتركان في أنواع من الوحدة، كوحدة الحضارة ووحدة المجال التداولي بأركانه كلها، ووحدة الموضوع الذي هو اللغة

العربية، ومما يدعم الإيمان بهذا الاختيار تجربة الغربيين أنفسهم الذين مروا بهذه المرحلة، وكان مما تجاوزوا به معضلة المفاهيم الجديدة انقلابهم صوب تراثهم والغرف من معين معجمه الفني بمراحله المختلفة اليونانية والرومانية واللاتينية، فلا نستكثر على أنفسنا أن نفعل مثل ما فعلوا.

خ- ركوب المصطلحات التراثية لتوصيل المفاهيم الجديدة بألفاظ رسخت في الأذهان طوال القرون وألفها المستعملون والمتعلمون، وصار من الصعب إزاحتها بألفاظ أخرى لا قبل لهم بها. ومن النتائج المنتظرة لهذه العملية أيضا الإسهام في توحيد المتواصلين بالمصطلح اللساني ولو في حدود قاعدة مشتركة تكون منطلقا لغيرها توسيعا وتفريعا.

شروط استثمار المصطلح التراثي:

لعل مما عمق فجوة الخلاف بين طوائف الباحثين في المجال اللساني حول مسألة المصطلح التراثي إعمالا أو إهمالا، عدم تحقق الشروط العلمية اللازمة المهيِّئة لهذا المصطلح وإعداده للإعمال الناجح، وأهم هذه الشروط يمكن إجمالها فيما يلي:

- حتى تتوفر الشروط المناسبة لاستثمار ملائم للمصطلح التراثي لا بد من التهييئ لذلك بإعداد معاجم خاصة بالمصطلحات التراثية المستوفية لكل لوازم العمل المعجمي الخاص والمراعية لمقوماته، وكذلك المعاجم الخاصة بالمصطلحات اللسانية الحديثة التي تستحضر واقع الاستعمال بكل صوره واحتمالاته، بعيدا عن التحيز والانغلاق، وإن كان لا بد من التحيز لمدرسة أو اتجاه أو نظرية، فلا بأس بذلك شريطة التنصيص على ذلك، وإخطار المتلقي به. وإن المعجم المنشود في هذا النطاق، سواء تعلق الأمر بالتراث أو بالحديث يجب أن يراعي في تعريف المصطلحات المصنفة كل سياقات استعمالها، وإثبات كل السمات المفهومية التي يحظى بها، ضمانا للفهم الدقيق والمستوعب للمصطلح، للتمكين من إجراء المقابلة بين القديم والجديد ومعرفة وجوه الالتقاء ووجوه الاختلاف بينهما تحقيقا لمهمة الاستثمار إن أمكنت.

- وما تقدم يساعد على الاستيعاب التام لخصوصية كلا المصطلحين في سياق أطرهما النظرية والمنهجية، فإن خصوصية كل مصطلح في النحو أو اللسانيات تنبع من التفرد النظري والمنهجي لكلا العلمين، والمفاهيم في حقيقتها لا تعدو كونها تعبيرا تفصيليا وتجزيئيا لنظرية العلم، ولا يخفى ما بين النظرية النحوية القديمة والنظرية اللسانية الحديثة من وجوه الفرق في الكليات والتفاصيل التي ترخي بآثارها على مفاهيم المصطلحات.

تحديد تصور خاص لمفهوم الدراسة اللغوية ومجالاتها في التراث وامتداداتها في غيرها، حتى يتسنى استيعاب المجالات العلمية التي يمكن أن يمتد اليها الاهتمام بجمع المصطلحات واستخراجها، وإقامة التعاريف الخاصة بها.

خاتمة:

- إن السؤال الذي يطرح نفسه عند طرق هذه الإشكالية وقبل الخروج منها هو: أي خطاب لساني نريد في ظل التعدد في النظريات والمناهج، وفي ظل انقسام لطوائف الباحثين تبعا لذلك انتصارا لهذه النظرية أو تلك، وانخراطها في هذا المنهج أو ذاك؟

- إن استثمار المصطلح التراثي إشكالية ترتبط بقضية التجديد والتحديث الفكري في مجتمعنا بصفة عامة، وهي ليست مطروحة في الخطاب اللساني العلمي فقط، وإنما في كل المجالات الفكرية والعلمية التي حدث تحيينها في سياق المعاصرة، وكان من التحديات التي طرحت في سياق قضية التجديد مسألة المصطلحات المواكبة للمفاهيم المستجدة، وهل بإمكان آليات التوليد تغطية هذا المطلب بعيدا عن إنجازات التراث المصطلحية، فنكون أمام ضرورة ابتداع لغة علمية لا قبل لها بما سبق؟

- لكن الذي يجب ألا يغيب عن بالنا أن القضية لا تنحصر آثارها في الانتصار لهذا التوجه أو ذاك، لأن أي اختيار لا بد أن يراعي خصائص اللغة العربية في التبليغ والبيان ضمانا لإثمار المنقول وإحاطته بالأسباب التي تكفل له النماء في مجاله، وهذا يتحقق فقط عندما نمعن في "الأخذ بأسباب اللغة العربية في التعبير والتبليغ"[1] وتجنب قطع المصطلحات عن أصولها بنيويا ومعنويا، وتفعيل كل ذلك في خدمة مفهوم المصطلح، ومراعاة العلاقة الناظمة بين المفهوم الأصلي والتبعي حسب تعبير هايدجر انتفاعا بالأسباب المبثوثة في الأول لمصلحة الثاني.. وهذه الخصال المذكورة تحقق بها المصطلح التراثي في عمومه على الأقل، وكانت سببا في نجاح تلقيه في مجاله أولا وفي غيره من المجالات بعد ذلك عبر الحقب التاريخية المتلاحقة، وفي قابلية تفريعه لمصطلحات فرعية تستوعب شبكته المفهومية المتنامية باطراد، وما كان لهذا ليتحقق لولا قيامه على هذه القاعدة الصلبة التي تحقق التواصل الناجح بشروطه، وقد يكون هذا من أهم العوامل التي جعلته أكثر التصاقا بأذهان الذين مالوا لإدراجه في سياق الاستعمال الحديث والمعاصر.

- ولا يعني الميل للمصطلح التراثي والانتصار له اهمال رأي المتحفظين والممانعين فإن كل رأي في هذه القضية لا يخلو من حظ وجاهة، ذلك أن التراث سلاح ذو حدين، فإما أن يحسن استثماره في سياق التجديد العلمي المعاصر ويحصل الانتفاع بما فيه من القيم الإيجابية التي تتحول إلى أسباب دافعة، أو يقع عكس ذلك فيتحول التراث إلى عائق يحول دون التطوير والتجديد والحيلولة دون تفاعل إيجابي مع المستجدات، وليتحقق هذا لا بد من مراعاة كل الملابسات التي تحف السياق الخاص بكل مصطلح، وهو ما أثبت في الشروط أعلاه.

---

1 - في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور طه عبد الرحمن ص: 29.

قائمة المراجع:

بالعربية:

1- الأصول – دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1981.
2- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الدكتور الطيب البكوش، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، الطبعة الثانية، .1992
3- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ، 1987.
4- اللسانيات الوظيفية ـ مدخل نظري: الدكتور أحمد المتوكل. ص10، منشورات عكاظ، .1988
5- اللسانيات واللغة العربية. الدكتورالفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985.
6- اللسانيات وآفاق الدرس اللغوين الدكتور أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان ودار الفكر، دمشق سورية. الطبعة الأولى .2001
7- اللغة العربية كائن حي لجورجي زيدان، دار الجيل بيروت، لبنان.
8- مجلة المناظرة، عدد خاص رقم: 6، دجنبر 1993.
9- المصطلح العلمي في اللغة العربية عمقه التراثي وبعده المعاصر، الدكتور. رجاء وحيد دويدري. الطبعة الأولى. 2010. دار الفكر دمشق.
10- المصطلح اللساني في كتاب سيبويه – دراسة في المعجم والأسس المعرفية. الدكتورعبد العزيز احميد. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة. 2004، مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز. فاس.
10- من قضايا المصطلح اللغوي العربي، الدكتور مصطفى طاهر الحيادرة، عالم الكتب الحديث، اربد الأردن، الطبعة الأولى، 2003
11- المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة.الدكتور عز الدين مجدوب، دارمحمد علي الحامي للنشر والتوزيع, كلية الآداب والعلوم الإنسانسة، سوسة، تونس، الطبعة الأولى، ديسمبر 1998
12- النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، الدكتور عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1979.

بالفرنسية:

1- De la terminologie grammaticale ; quelques problèmes théoriques et pratiques; langue francaise; n: 47; septembre; 1980 ; larousse; paris; 1973
2- Nouvelle grammaire du francais, Delatour Jennepin, édition Hachette.
3- de la terminologie grammaticale. Janine Delcourt, Association belge de linguistique appliquée . ABLA-BVTL-BGAL, 1992 – 145.
4- Nouvelles tendances de la linguistique, Malmberg : trad du suédois par jaques gengeons; p.u.f; paris; 1972.
5 - prolégomènes à une théorie de language. minuit ; paris ; 1971.